

«مارتن إيدن» رواية جاك لندن الشهيرة في السينما

فيلم إيطالي يدين البورجوازية ويرفض الماركسية وينحاز للعدمية

بعد عرضه في مسابقة مهرجان فينيسيا السينمائي وفوزه بجائزة أفضل ممثل نالها بطله الممثل الشاب لوكا مارينيلي، جاء فيلم «مارتن إيدن» للمخرج الإيطالي بيترو مارسيللو للعرض في الدورة الـ 63 من مهرجان لندن السينمائي.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري



لندن - فيلم «مارتن إيدن» Martin Eden إيدن إعداد إيطالي عن رواية الكاتب الأميركي جاك لندن التي نشرت عام 1909. وقد عُرف مؤلفها بانتماؤه الاشتراكي. وتحمل الرواية الكثير من سمات «السيرة الذاتية»، فبطلها العامل ذو الأصول البسيطة الذي انتقل بين العبيد من المهنة المتدنية، ثم قرّر أن يعلم نفسه بنفسه وتمكن بعد أن كان يشبه أمي، من الإمساك بناصية اللغة ليصبح كاتباً مرموقاً يشار إليه بالبنان، قد يكون هو نفسه جاك لندن.

يبدأ الفيلم وصاحبنا البحار الذي يقدم نفسه باعتباره «مارتن إيدن» (إمعاناً في تغريب الشخصية عن المحيط) ينقذ شاباً ينتمي لعلية القوم من اعتداء تعرّض له في الميناء، فتدعوه أسرة الشاب، عائلة أوسيني البورجوازية العريقة الثرية، إلى تناول العشاء في قصرهم.

وهناك يقع في غرام ابنة العائلة الجميلة كالزهرة البانعة «إلينا». وترى هي فيه شاباً وسيماً جريئاً طموحاً، يمكن أن يصبح رجلاً ذا شأن إذا استطاع أن يتعلم. تحدّثه عن الشاعر الفرنسي بودلير (صاحب ديوان أزهار الشوك)، لكنه لا يعرف عنه شيئاً.

من هذا اللقاء الذي يعصف به عاطفياً، ينطلق مارتن بسعى نحو التعلم. يشتري كتاباً عن بودلير ويتعلم الإبداعية الإيطالية وتكوين العبارات، ثم يقتني عشرات الكتب يلتمسها، وبعد أن يفشل في اختبارات القبول في فصول التعليم، لا يفقد إيمانه بنفسه وبقدرته على أن يتفوق على الحاصلين على أرقى الشهادات. إنه يريد أن يثبت لحبيبه أنه جدير بحبها له.

يقدم مارتن مع شقيقته وزوجها الجفاف اللفظ الذي يعترض على اكتساب مارتن على القراءة، بدلاً من أن يعيش عالمة عليهما، وينتهي الأمر بمشاجرة يطرد على إثرها من مسكن زوج أخته، فيلتقي في القطر بأرملة تكبره في العمر هي «ماريا» ذات الأصول الاجتماعية المتواضعة، تؤمن بعقيدته فتمنحه غرفة في مسكنها في قرية خارج نابولي.

ومن هناك يواصل كتابة مقالاته وأشعاره وقصصه ورسائله الغرامية إلى إلينا، يشتري الطوابع ويرسل كتاباته بانتظام إلى الصحف التي ترفض نشرها وتعيدها إليه.

غموض الكتابات

رغم حب إلينا له، لأن تفكيرها العملي يجعلها تشعره أنه يضع وقته سدى، وأنه يجب أن يعثر على عمل جيد قبل أن تقرّر الارتباط به. وبعد أن ينفجر في ثورة غضب على ضيوف العائلة البورجوازيين خلال دعوة عشاء مُربيا عن أزدائه لقيم وأفكار طبقتها، تقطع علاقته به، ليستمر في الكتابة والمحاولات إلى أن تأتيه الفرصة أخيراً فنعثر على من يؤمن بموهبته وينشر كتاباته. أما نوعية هذه الكتابات فيبقى الفيلم في الظل.

نحن نفهم أنه يكتب عمّا يشاهده في الواقع (ربما مثلما كان يفعل بودلير)، أي عن أقرانه من أبناء الطبقات الدنيا. لكن هذا الموقف الفكري المقترض، يتناقض مع رفضه الحاد للاشتراكية.

يلتقي في حفل من حفلات الطبقة العليا بـرجل عجوز هو «روس» الذي يصبح بمثابة والده البديل، يصادقه ويؤمن بموهبته الأدبية لكنه ينصح به بأن يقبل على الاشتراكية التي يرى أنها الفكر الذي سيجعل لكتابات قيمة ومعنى.

مارتن إيدن يحضر اجتماعات الاشتراكيين ويخطب فيهم مُعلنًا رفض ما يردده قادتهم، أي فكرة الجماعة ويصرّ أن الفرد هو أساس التقدم، ويلوح بكتاب هيربرت سينسر عالم الاجتماع الإنكليزي صاحب نظرية الفرز الطبيعي أو الداروينية الاجتماعية، كما يعلن انحيازَه للإنجاز الفكري والجمالي للاستقرارية وليس للطبقة العاملة.

إنه يرفض البورجوازية دون أن يتخلّى عن قيمها بل يُبدي احتراماً كبيراً لانحيازها، ويرفض الاشتراكية لكنه يتمسك بانتماؤه للوسطاء ونراه في أحد المشاهد يصحب



مارتن إيدن الحائز بين الفرد والطبقة



العمال يحيطون بالبطل احتجاجاً على موقفه

السيناريو رغم إخلاصه لرواية جاك لندن، ويعاني الفيلم كما أشرت، من الاضطراب نتيجة غياب تحديد الزمن، وغموض الفكر الخاص الذي يعبر عنه بطله، بل وقلة معرفتنا بطبيعة كتاباته نفسها وعلاقتها بالعالم اكتفاه بإشارات عامة واقتناص عبارات مبهمة.

ومن أبرز معالم الفيلم التي تفوق طاقم الممثلين جميعاً ودقة اختيارهم، يتقدمهم جميعاً لوكا مارينيلي في الدور الرئيسي.

إنه ينتقل في سلاسة وبراعة وجوية، من فترة البراءة الأولى ومن سذاجة الجاهل الذي يضحكنا عندما يعجز عن وصف لوحة يراها واضحة من بعيد ومجرد صبغات لا معنى لها من قريب، أو عندما يأكل بيديه على المائدة بطريقة همجية، إلى إصرار العاشق الذي يقرّر أن يفتن حبيبه بتفوقه على المتعلمين، إلى بساطته ومرحه وملاطفته لأولاد ماريا التي أشققت عليه وعلى وحدته، وأوته لذيها مؤمنة بموهبته وبأنه سيجتق النجاح ذات يوم.

رغم صعود مارتن إيدن الاجتماعي وانتقاله من طبقة إلى أخرى، إلا أنه يظل يشعر بالاضطراب، ويتزايد إحساسه بالاعتراب

يحافظ الممثل على إيقاعه وحيويته كشخصية متمردة عنيفة، من مشهد إلى آخر، ينعكس على وجهه عذابه الداخلي، يعرف كيف ينفجر معبراً عن رفضه وغضبه، كما يعرف كيف يسمو ويتخيل ويحلم بحبيبه التي أصبحت بعيدة عنه.

إنه ممثل من قامته فريدة، ولا شك أنه سيكون له شأن كبير في السينما الإيطالية وما وراءها.

نابولي إلى الريف، ومن العمل في المسئلة، إلى قصور البورجوازية بما فيها القصر الفخم الذي سينتقل للعيش فيه بعد أن يحقق الثراء، بغدق على شقيقته، يمنحها شقة جديدة، ويشتري لها متجراً.

وفي هذا الجزء تتغير ملامح مارتن، ولون شعره وملابسه بل وطريقته في الحركة والحديث، لكنه يظل ثائراً غاضباً حانقاً، ينعكس الألم الداخلي على وجهه.

الحقيقة صادمة

في بناء الشخصية ما يجعلك تتعاطف معها رغم تناقضاتها. فلا شك أن للموهبة والعصامية احترامها. لكن مارتن لا يصل إلى اليقين ولا السعادة بل يظل يشعر بالاضطراب الفكري والنفسي.

ورغم صعوده الاجتماعي (وانتقاله من طبقة إلى أخرى) إلا أن شعوره بالاعتراب يتزايد، فيظل حائراً متردداً بين ما حققه ورغبته في العودة إلى أصوله وانتماؤه الحقيقي. «لقد خان طبقتي» حسب مفهوم جاك لندن، واستحق مصيره التراخيدي.

إن ما يحرك مارتن في الفيلم، ليس البحث عن الحقيقة، فهو ليس البطل الوجودي المعذب الباحث عن الحقيقة. إنه يرى أن الحقيقة صادمة، لذلك يهرب من مواجهة الذات، ويصبح مدفوعاً بقوة عدمية تقوده نحو تدمير الذات. في الرواية يجعله جاك لندن ينحدر بالغرق في البحر.

أما في الفيلم فيبقى المخرج عليه ويجعله يتخفي من عالمه بحثاً عن عالم آخر. هل سيلقي بنفسه وهو على ظهر البخرة التي تنقله إلى العالم الجديد؟ من ناحية الديكور والإكسسوارات والمونتاج والموسيقى ومستوى الصورة، يصل الفيلم إلى قمة الدقة والإتقان والرونق.

لكن تبقى المشكلة الأساسية في غموض الكثير من النقاط في



سحر الحب الذي لا يكتمل

إيلينا إلى أحد الأحياء الشعبية حيث يعرفه الجميع وينادونه باسمه، وصيح فيها «أنا أكتب عنهم.. ما الخطأ في أن أكتب عن هؤلاء البشر».

ما الذي يخترنه مارتن؟ ماذا يريد بالضبط؟ هناك إحساس ما بأنه يرغب في تحقيق الصعود فقط بغرض الانتقام من البورجوازية التي ليعنها ويكرهها دون أن يقبل بفكرة الثورة عليها. إنه يتعذب بالحلم بعد أن تتخلّى عنه إلينا. يقيم علاقة مع فتاة جميلة، ساقية في مقهى، لكنه لا يبدو مقتنعاً بها فقد سبق أن وصفها بأنها «لا تستطيع تركيب جملتين معاً». إنه يظل ينتظر إلينا ويفكر فيها. وعندما تاتيه بعد أن يكون قد أصبح كاتباً شهيراً مرموقاً يتمتع بالثراء، يرفضها ويطردها من حياته بكل قسوة.

لمسات جمالية

هذا الصعود يتحقّق في القسم الثالث حيث يقفز الفيلم في الزمن (دون تحديد دقيق للزمن) لتري مارتن يقيم في قصر فخم، يتبرّع بالمال الكثير لأصحاب «الدعوة إلى الثورة»، ولكن أي ثورة بالضبط لا نعرف ولا يهتم الفيلم بالتوقف أمام هذه المرحلة ويتعمّق فيها كما كان ينبغي، وهي إحدى نقاط الضعف في الفيلم رغم جماله الشكلية واهتمام مخرجه بيترو مارسيللو كثيراً بمحاكاة أسلوب الأفلام الإيطالية التي تجمع بين الواقعية والرومانسية مع لمسات من سينما الحداثة وتفكير الصور بين الدعايات الحرة بالكاميرا المهترزة، والمشهد المصمّم بدقة وكلاسيكية، كما تعمق الألوان من الإحساس بالتغيرات الدرامية.

ويهتم المخرج كثيراً بأماكن التصوير التي تمنح الفيلم قوته وتشكل عالم البطل في انتقالاته المختلفة، من البيئة الفقيرة في حوار



لوكا مارينيلي تألق في تجسيده شخصية مارتن إيدن ليثبت أنه ممثل من قامته فريدة

بطل الفيلم لم ينل شيئاً من التعليم، ليس لديه سوى عدد محدود من المفردات اللغوية، لكنه يطمح إلى أن يصبح كاتباً عظيم الشأن

طبيعة الأماكن التي يدور فيها التصوير بل وأسلوب التصوير نفسه، خاصة في الثلث الأول من الفيلم، وتصميم الملابس وطرز السيارات والقطار.. وغير ذلك، تشير كلها إلى حقبة قد تكون في الأربعينات بعد الحرب مباشرة أو الخمسينات، لكن طبيعة المشاهد التي يصورها لإضرابات العمال وتجمّعهم من أجل تكوين كيانات سياسية ونقابية تدافع عن حقوقهم يحمل سمات فترات زمنية أسبق كثيراً على الخمسينات، فهي تبدو كما لو كانت تنتمي لبيدات الوعي العمالي في إيطاليا الماركسية، والموقف الحائز بينها وبين الفوضوية (تأسس الحزب الشيوعي الإيطالي عام 1921).

قصة الصعود

بلطان المنحدر من بيئة فقيرة، لم ينل شيئاً من التعليم، ليس لديه سوى عدد محدود من المفردات اللغوية، ويخطئ في استخدام مفردات اللغة الإيطالية التي لا يعرفها بل يتحدث بلهجة سكان نابولي الشعبية التي تختلف في مفرداتها كثيراً عن الإيطالية، لكنه يطمح إلى أن يصبح كاتباً عظيم الشأن. كيف يحدث ذلك وهل يمكنه أن يتحقق له دون السيطرة على اللغة؟